• الكتاب:

توثيق ودراسة

أمضى ابن حزم الأعوام الأخيرة من حياته فى أرض أسلافه، وهى ضيعة صغيرة كانت لهم تعرف بمنت ليشم Mont Lisam، وهو اسم من أصل رومانى – كما نرى – أى من عامية اللاتينية التى كانت تُتحدَّث فى الأندلس لحظة الفتح الإسلامى وما بعده، ولم تتلاش تمامًا أبدا، والقرية لا تزال قائمة حتى يومنا، وتحمل اسم بيت منتيخا Casa Monteja، على بعد كيلو مترين تقريبًا من مدينة وُلْبَة المعاصرة، انسحب إليها مهمومًا ممرورًا، فى تاريخ نجهله، يلقى طلابه، ويبثّ علمه، ويحرّر كتبه، زاهدًا فى الدنيا، راغبًا عن كل شىء.

وفى هذه الفترة حرّر رسالته التى بين أيدينا، وإذا لم تكن آخر سطور خطها قبل أن يلقى الله، فهى على التأكيد من بين آخر ما كتب، ولو أنّ ذلك لا يعنى بداهة أن تفكيره فيها جاء فى اللحظات الأخيرة من حياته، لأن أسلوبه يومىء – كما سنشير إليه – إلى أنها خواطر متناثرة، وليدة تجارب متباينة، سجلها فى فترات متباعدة، لونًا من اليوميات، أو الاعترافات إنْ شئت، وأخذت شكلها النهائى خلال فترة اعتكافه، بعد أن تكّونت فى أناة،

على مهل، وخضعت للمراجعة والتأمُّل، عبر حياته المديدة، ثم نضجت فى شيخوخته، وآتت ثمارها وهو على أُهبة الرحيل من الدنيا، فكانت هذه الرسالة، أو هذا الكتاب.

كان المؤرخ الأندلسى ابن حيان، المتوفى عام ٤٦٩هـ - ١٠٧٦م، مصدرًا هامًّا ودقيقًا فيما قدّم لنا من معلومات عن ابن حزم ومؤلفاته، فهما متعاصران، ولنا أن نزعم أنهما تلاقيا وتعارفا، ولا أقول تصادقا لأن مفهوم ابن حزم للصداقة دقيق وجليل، فكلاهما وزر لعبد الرحمن المستظهر فى خلافته القصيرة التى لم تتجاوز شهرا ونصف من عام ٤١٤هـ - ١٠٢٤م. وعمرّ ابن حيان طويلاً، امتدت به الحياة حتى جاوز التسعين عاما، وكانت وفاته بعد وفاة ابن حزم بثلاث عشرة سنة، وجاء قبله إلى الحياة بأعوام، وجاءت أخباره عن ابن حزم فى «المتين» من كتبه التاريخية التى تناولت الأندلس بعامة، لأن «المقتبس» منها تنتهى أحداثه بنهاية خلافة الحكم المستنصر تقريبا، عام ٣٦٦هـ - ٩٧٦م، ولمّا يكن ابن حزم قد جاء إلى الحياة، وفيما بعد قرأ ابن حزم هذا الكتاب فأعجب به، وأثنى عليه، وافتخر به فى رسالته «فضل الأندلس»، ونعته بأنه «أجلّ كتاب أُلِّف فى هذا المعنى».

أما كتابه «المتين» فيبدأ بأحداث الفتنة البربرية التى تفجرت فى الأندلس عام ٣٩٩هـ - ١٠٠٨م، وانتهت قريبا من عام ٤٦٣هـ -

١٠٧١م، قبل موت ابن حيان بسنوات قليلة، لأن ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة» توقّف فى النقل عن ابن حيان عند هذا التاريخ، وكتاب «المتين» ضاع كله، ولم يصلنا منه إلا ما نقله عنه الذين جاءوا بعده، وكان ابن بسام أكثرهم اغتناما له، ونقلا عنه، وأورد فيما أخذ منه ترجمة ضافية لابن حزم، تضمنت جانبا كبيرا من مؤلفاته، وذكر من بينهما «كتاب أخلاق النفس».

ومن المرجح أن الجزء الذى تضمن الفقرة الخاصة بابن حزم ومؤلفاته لم تظهر كتابًا محررًا يقرؤه الناس إلاّ بعد وفاة ابن حزم عام ٤٥٦هـ - ١٠٦٤م، وبداهة قبل الانتهاء من تأليف الكتاب عام ٤٦٣هـ - ١٠٧١م، لأن ابن حيان مسّ نسب ابن حزم فيما أورد عنه، وطعن فى صحته، وبعد أن أفاض عليه مدحا، وأغرقه ثناء، أخذ عليه أنه «من غرائبه انتماؤه فى فارس، واتّباع أهل بيته له فى ذلك، بعد حقبة من الدهر تولىَّ فيها أبوه الوزير المعقّل فى زمانه، الراجح فى ميزانه، أحمد بن سعيد بن حزم لبنى أمية أولياء نعمته، لا عن صحة ولاية لهم عليه، فقد عهده الناس خامل الأبّوة، مولَّد الأرومة، من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم لسلفه نباهة، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابيةٍ، وعمدّه بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى، فاغتدى

جرثومة شرف لمن نماهم، أغنتهم عن الرسوخ فى أولى السابقة، فما من شرف إلاّ مسبوق عن خارجية، ولم يكن إلاّ كلاَ ولا، حتى تخطىَّ علىّ هذا رابية لَبْلَة، فارتقى قلعة إصطخْرَ من أرض فارس، فالله أعلم كيف ترقّاها، إذ لم يكن يُؤتى من خطل ولا جهالة، بل وصله بها وُسمعُ عِلْم، ووشيجة رحم معقومة، بلّها بمسأخر الصلة، رحمه الله»[1].

إنها إشارة ما كان لابن حزم أن يسكت عنها لو قيلت وهو على قيد الحياة، كان سيرد عليها عنيفا – كعادته – نافيا أو مؤكدا أو مبرِّرا. والحق أن ابن حيان لم يستهدف بها بدءا الإساءة إلى ابن حزم قاصدًا، وإنما مستجيبا لمنهجه فى التأريخ، وفيه «تنكب طريقه كثير من المؤرخين المسلمين، حين يتحرجون من ذكر معايب الموتى، جريا وراء المثل القائل: «اذكروا محاسن موتاكم»، فهو يذكر المحاسن ولكنه لا يحجم عن ذكر المساوئ، لا يوردها ملتوية تومئ وتشير، وإنما يذكرها صراحة دون مواربة، وفى جرأة دون تردد»[2].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ مجلد ١. ص ١٧٠، طبعة إحسان.

(٢) انظر: د. الطاهر أحمد مكى، دراسة فى مصادر الأدب، الفصل الخاص بكتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

وهى إشارة لا تمس فضل ابن حزم بحال، فلا ضير عليه، ولا تفرق عندنا، وليس بذى أهمية أيضا، أن يكون جده الأعلى عربيًا وثنيًا، أو فارسيا مجوسيا، أو إسبانيا كاثوليكيا، أو حتى بلا دين على الإطلاق، لأنه كان، فى كل الأحوال، مسلمًا مخلصًا، ومؤمنًا صادقًا، دافع عن الإسلام عقيدته فى حماسة وحميّة واستبسال لا نجدها إلاّ عند قليلين، وكل ما هنالك أن بعض مناهج البحث العلمى المعاصر تعطى شيئا من الأهمية للخصائص الوراثية والمزاجية لكل جنس، عند دراسة مواقف الأشخاص تجاه بعض القضايا، وهو منهج لا نأخذ به على إطلاقه، ولا يسقط كلية، لأن دراسة سلوك الإنسان، وردود الفعل عنده، أعمق وأعقد من هذا بكثير.

هذه لفتة عابرة، وددت أن أطمئن بها صديقنا أبا عبد الرحمن ابن عقيل الظاهرى، وهو شاب واعد، وباحث دءوب، فى إشارته خلال بعض أعماله، ولما تنشر[1]، إلى أن هذه الرواية «فرح بها المستشرقون ليدعوا أن أبا محمد كان مسيحيا غربيا، ولم يكن فارسيا شرقيا، ثم تلقفها بعض الببغاوات المعاصرين من العرب»

(١) جمع أبو عبد الرحمن أقوال المؤرخين والدارسين فى الإمام أبى محمد، ابن حزم، منذ عاش حتى يومنا، فى أجزاء عديدة، مرتبة تاريخيًا وطبعها على «استنتسيل» فى نسخ محدودة، تفضل مشكورا فأهدانى نسخة منها، والإشارة وردت فى تعليقه على نص ابن حيان أيضا. ودراسته هذه مع شىء من التهذيب والتشذيب والمنهجية، يمكن أن تصبح شيئًا مفيدًا للغاية.

وأودّ أن أذكره إلى أن الذى تلقّف هذه الرواية أوّلُ من اكتشف ابن حزم، وأوّل من عّرف العالم به، وبكتابه «طوق الحمامة»، وهو المستشرق الهولندى رينهارت دوزى Dozy (١٨٢٠ – ١٨٨٣م)، وهو بروتستانتى، ويجىء فى عداد المفكرين الذين يوصفون بأنهم مناهضون للكنيسة anticlerical، متحرر جدا، وأنصف الحضارة الإسلامية فى الأندلس، ولم يقل عن ابن حزم إنه كان مسيحيا، وكان ما هناك أنه أول من وقعت عينه دارسا على كتاب «طوق الحمامة» فى عصرنا الحديث، من العرب والأوربيين على السواء، ووقف طويلا عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم، تضمن فى صراحة بيّنة خطاه الأولى فى عالم الحب، وكانت مفاجأة مذهلة له، انبهر بها، وفقد معها توازنه العلمى، فترجم القصة معجبا، فى لغة فرنسية عذبة شفّافة، أخذت طريقها إلى كل مختارات الأدب العالمى، ثم عقب عليها بقوله:

«يلاحظ دون ما شك فى القصة التى انتهينا من قراءتها ملامح عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب، الذين يفضلون، بصفة عامة، الجمال المثير، والعيون الفاتنة، والابتسامة الآسرة، والحب الذى كان يحلم به ابن حزم يختلط، دون ريب، بما هو حسىّ جذّاب، وعندما يكون الحبيب والمنشود اليومَ غيره بالأمس، يصبح الإحساس أقل قسوة، لكن فيه أيضا مَيْل إلى ما هو أخلاقى،

من رقَة بالغة واحترام وحماسة، وما يأسره جمال رائق وديع، فيّاضٌ بالكرامة الحلوة، لكن يجب ألاّ ننسى أن هذا الشاعر الأكثر عفّة، وأكاد أقول الأكثر مسيحية، بين الشعراء والمسلمين، ليس عربيا خالص النسب، إنما هو حفيد إسبانى مسيحى، لم يفقد كلّية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه، وهؤلاء الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم، وأن يبتهلوا بمحمد بدل المسيح، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى فى الدين والوطن، ولكن يبقى دائما فى أعماق أرواحهم شىء صاف رهيف وروحى، غير عربى»[1].

من المؤكد أن هذه زلّة عظمى، وأخطاء الكبار كبيرة، وبداهة المقدمات على فرض صحتها، وهو أمر غير مسلم به، لا تؤدى إلى النتائج التى انتهى إليها، وقد ناقش القضية علميًا المستشرق الكبير أسين بلاثيوس، وهو عاشقٌ لابن حزم، وأبان فساد النتيجة التى انتهى إليها دوزى، رغم تسليمه بأن انتساب ابن حزم فى فارس موطن شك كبير.

ولكن هذه قضية أخرى موطنها غير هذه المقدمة![2].

---

(١) Dozy, Histoir des Musulman d'Espagne, Tomo II, Pag. 263, Trad. Espagnole, Buenos Aires 1940

(٢) ناقشنا القضية برمتها فى كتابنا: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الفصل: غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس، الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

فإذا تجاوزنا ابن حيان إلى تلاميذ ابن حزم نلتمس عندهم لرسالتنا خبرا، أو إشارة مجملة، عز علينا الأمر تماما.

وأول هؤلاء التلاميذ صاعد الطليطلى، قاضى طليطلة، ووزير المأمون بن ذى النون أميرها، المتوفى عام ٤٦٣هـ ١٠٧٠م، ولو أن كتب التراجم لا تحدّد لنا: متى، وأين، وأى المواد درس على ابن حزم، وكل ما تقوله عنه أنه «روى عن أبى محمد»، وألف كتابه «طبقات الأمم» يستدرك به ما فات شيخه فى كتابه «الفصل»، وترجم له ترجمة وسطا، أتى فيها على ذكر مؤلفاته إجمالاً، فذكر أنها تدور حول الشعر، وصناعة الخطابة، وأصول الفقه وفروعه على المذهب الظاهرى، والفقه والحديث والأصول، والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب»، وذكر كتاب «التقريب لحدود المنطق» وحدّده بالاسم، ولم يشر إلى كتاب «الأخلاق» من قريب أو بعيد.

وبعده يجىء الحميدى، تاريخًا لا أهمية، صاحب كتاب «جذوة المقتبس، فى ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواه الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوى النباهة والشعر»، المتوفى عام ٤٨٧هـ – ١٠٩٥م، وكان قد هجر الأندلس، واستوطن بغداد، وفيها لقى الله، وأورد

لشيخه، وكان معجبا به ومفتونًا، ترجمة لا بأس بها، ضمّنها نتفا من أخباره وأشعاره، وأورد أسماء بعضًا من كتبه ورسائله، وليس من بينها «كتاب الأخلاق» هذا.

وكذلك الشأن عن تلميذه الإمام الوزير أبى محمد بن العربى، صحب شيخه ابن حزم سبعة أعوام، وسمع منه جميع مصنفاته، وذكر منها «الفصل» و «الإيصال»، ثم استدرك على نفسه: «وربما كان له شيء من تواليفه فى غير بلد، فى المدة التى تجّول فيها بشرق الأندلس فلم أسمعه»، ومن الطبيعى إذن ألاّ يذكر كتاب الأخلاق، لأنه من بين آخر ما حرّر ابن حزم من مؤلفات.

غيبة ذكر «كتاب أخلاق النفس» فى التراجم التى خص بها تلاميذ ابن حزم شيخهم لها تفسير واضح، يدعم رأيى فى أنّ الكتاب آخر ما ألف ابن حزم، وإنه جاء فى شكل اعترافات ويوميات تعكس آراءه فى الحياة والناس، جثمت على وجدانه وفكره زمنًا، فأزاحها عن عقله وقلبه تسجيلا، فجاءت خواطر متناثرة، تُقرأ وتُفهم وتُحفظ، ولكنها لا تُدرّس للطلاب فى حلقات. وأضيف إلى ذلك أن الذين اشتهروا من تلاميذ ابن حزم، وتركوا لنا مؤلفات وصلتنا، وتحدّثوا عن شيخهم فيها، هم الذين التفوا حوله فى أول حياته العلمية، أستاذا نابها فى قرطبة، وغيرها من كبريات المدن، أمّا الذين اختلفوا إليه فى ضيعته، حين لاذ

بها زاهدًا فى الدنيا، راغبًا عن كل ما عدا العلم، فكانوا من «أصاغر الطلاب»، على حد تعبير ابن حيان، ولا نكاد نعرف أحدًا منهم، ولم أقع لهم على أثر.

كان ابن بسّام، المتوفى عام ٥٤٢هـ - ١١٤٧م، أول من نقل نصّ ابن حيان فى كتابه «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»، وتضمن مؤلفاته، ومن بينها «كتاب أخلاق النفس»، على حين صمت عنه مناصره الفتح ابن خاقان تماما، فى مؤلفه «مطمح الأنفس»، وتضمن ترجمة قصيرة مسجوعة لابن حزم، ربما لأنه وضع نفسه منذ البداية بين قيود السجع الضيقة، فما اتفق معه جاء به، وما جافاه نأى عنه، ولعله - وهو الأرجح عندى - لم ير كتاب «المتين»، فقد كان ابن خاقان ناثرًا فنّانا، وأديبًا ذوّاقة، لا صبر له على عناء البحث، وتقصىّ التاريخ، واستيعاب المؤلفات الكبيرة.

ويبدو أن كتاب «المتين»، وهو أصل ما نقل ابن بسّام، ضاع فى زمن مبكّر، إذ كان ضخمًا، فى ستين مجلدا على ما تقول الروايات، ومثله يغلو امتلاكه، ويعسر حمله، ويصعب الحفاظ عليه، فى فترة تعاورتها الأحداث الرهيبة، والفتن الهوج، وبقى للناس كتاب الذخيرة، ولكن مادته وأسلوبه وحجمه الكبير نسبيًا لم تتح له أن ينتشر على نطاق واسع، ومن ثَمَّ ظل المؤلفون فى جملتهم، مشارقة وأندلسيين، ينقلون ترجمة ابن حزم

عن الحميدى، أو صاعد الطليطلى، على نحو ما نجد فى الصلة لابن بشكوال، أو فى المعجب للمراكشى، أو فى الإحاطة لابن الخطيب، وهم لا يعرضون «لكتاب أخلاق النفس». على حين أن الذين قرأوا «الذخيرة» ذكروه فيما أحصوا لابن حزم من مؤلفات، وندع الذين لم يشيروا إلى الكتاب فهم كثير، وذكرهم لا يفيد فى شىء، ونمضى مع الذين أشاروا إليها، وكلهم لا يتجاوزون إيراد عنوانها، على نحو ما فعل ابن حيان.

أول من أشار إلى الكتاب من المؤلفين المشارقة ياقوت الحموى، المتوفى عام ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م، فى كتابه معجم الأدباء، وكانت بين يديه مصادر جمة عن ابن حزم، وخصّة بترجمة وافية، وفيها نقل نص ابن حيان فى كتابه «المتين»، نقلا عن «الذخيرة» فيما أتصور، وذكر له «كتاب أخلاق النفس» بين ما عدّ من مؤلفاته.

ويجىء الذهبى، الحافظ شمس الدين، المتوفى عام ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م، بأطول ترجمة كُتِبت عن ابن حزم، فى كتابه «سير أعلام النبلاء»، والكتاب لمّا ينشر كله، ولكن العالم الجليل الأستاذ سعيد الأفغانى إستل منه ترجمة ابن حزم، ونشرها مستقلة بعد أن قدّم لها وعلّق عليها. وقد أورد لنا الذهبى مؤلفات ابن حزم مفصلة، إن لم تكن كلها فالجانب الأكبر منها، وكان حفيًّا بها، ففصل بين المؤلفات الكبيرة والرسائل المحدودة، ويشير أحيانا

إلى أجزائها، وحتى عدد أوارق كل كتاب، وذكر من بينها، فى القسم الذى وقفه على الرسائل والأجزاء والكراسات، كتاب «السير والأخلاق (جزءان)».

وأول ما يلفت النظر هنا أن عنوان الكتاب أخذ صيغة جد مختلفة عن صيغة الأولى «كتاب أخلاق النفس» التى نجدها عند ابن حيان، والذين ساروا على نهجه، أما عند الذهبى فأصبح «السير والأخلاق». فمن أين جاء بهذا العنوان؟. وماذا يعنى تعبير «جزآن»؟ وما لدينا منه الآن جزء واحد؟. من الواضح أن مجىء الكلمة بين قوسين يوحى بأنها من عمل الذهبى، فهل تراه يعنى أنه كان فى كراستين؟ هذا ما يغلب على ظنى، لأن الذهبى صدّر جملة المؤلفات التى جاء بينها كتاب «السير والأخلاق» بقوله: «ومما له فى جزء أو كراس»، ومع ذلك لم يستخدم كلمة كراسة أبدا، واستعاض عنها بجزء. أتُراه يستخدم الكلمتين بمعنى واحد؟ ذلك أنّ «كتاب أخلاق النفس» صغير، وموضوعه واحد، ولم يشر ابن حزم فى مقدمته إلى أنه سيكون من جزئين، وكان من عادته أن يحدد منهجه فى مقدمات كتبه.

أما تغيير الاسم فأراه من عمل الذهبى نفسه، أو من ناسخ المخطوطة التى اطلع عليها، أو من مؤلف المصدر الذى نقل عنه، وفى هذه الحالة لن تكون رواية ابن حيان، التى حفظها عنه

ابن بسّام، ولعل الذى قام به ارتآه أدق تعبيرا، أو أخف نطقا، أو كان أقرب إلى مزاجه. لأن الكتاب مجموعة من الخواطر المتناثرة، الجامعة لكثير من تجارب الحياة، وتتسع لأكثر من عنوان.

ولكن المقَّرى التلمسانى المتوفى عام ١٠٤١هـ - ١٦٣٢م، وحرّر كتابه «نفخ الطيب» فى القاهرة، يعود بالاسم إلى صيغته القديمة: «كتاب أخلاق النفس»، رغم أنه قرأ ترجمة الذهبى لابن حزم، مباشرة أو فى مصادر نقلت عنه، واعتمد عليها، ولكنه لم يشر إلى اختلاف الاسم، أو إلى أنه جزءان. وقد يكون من المفيد أن أشير إلى أنّ هناك رسالة صغيرة من ثلاث ورقات، تحمل عنوان: «رسالة فى النفس»، كُتِبتْ فى أول القرن السادس الهجرى، ولمّا تزل مخطوطة، ولكن لا صلة لها بموضوع كتابنا، وإنما هى إلى المباحث الفلسفية وما وراء الطبيعة أقرب.

• مخطوطات الكتاب:

لا نعرف لكتاب «أخلاق النفس» مخطوطات فى مكتبات عامة غير واحدة، توجد فى مكتبة شهيد على بالآستانة، ضمن مجموعة رسائل لابن حزم، تحت رقم ٢٧٠٤، وتوجد مصوّرة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة، ويرجع تاريخ نسخها إلى القرن التاسع الهجرى، أى الخامس عشر الميلادى، وكُتِبَتْ فى خط نسخى جميل، ويقع المخطوط فى ٢٦٥ ورقة من

الحجم الكبير، ويحتوى على الرسائل التالية مرتبة حسب ورودها فى المخطوطة.

١ – رسالة فى الأصول والفروع من أقوال الأئمة.

٢ – رسالة البيان عن حقيقة الإيمان.

٣ – رسالة فى معرفة النفس بغيرها، وجهلها بذاتها.

٤ – رسالة الدرّة فى تحقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده.

٥ – رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق.

٦ – رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى.

٧ – رسالة فى الرد على الهاتف من بعد.

٨ – رسالة فى مسألة الكلب.

٩ – رسالة فى الجواب عما سئل عنه سؤال تعنيف.

١٠ – رسالة فى مداوة النفوس، وتهذيب الأخلاق، والزهد فى الرذائل.

١١ – رسالة فى الإمامة.

١٢ – رسالة فى ألم الموت وإبطاله.

١٣ – رسالة فى الجواب عن حكم القول بأن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم الدين.

١٤ – رسالة فى الغناء الملهى: أمباح هو أم محظور.

١٥ – رسالة التلخيص لوجوه التخليص.

١٦ – رسالة فى مراتب العلوم.

وتنقطع الرسائل عند هذا الحد، دون أن تتم، وكان يجب أن تليها «رسالة فى الوعد والوعيد، وبيان الحق فى ذلك»، كتبها إلى الأمير أبى الأحوص معن بن محمد، أول من استبد بالمرية من بنى صمادح.

وقد نشر الدكتور إحسان عباس جل هذه الرسائل، ويهمنا من بينها « رسالة فى مداوة النفوس»، وسنعود إلى الحديث عنها حين نعرض لمطبوعات الكتاب.

وتصوّرت بدءا أن مخطوطة الآستانة هذه ليست الوحيدة، لأن مطبوعة القاهرة الأولى تعتمد على مخطوطة أخرى، مختلفة العنوان، دقيقة النسخ، واضحة الخط، بريئة من الأخطاء، سليمة الصفحات، ولو أن النص فيهما واحد دون زيادة أو نقصان. وبدأت أبحث عن هذه المخطوطة فى مظانّها المختلفة، فتشت عنها فى دار الكتب المصرية فلم أقع لها على أثر، وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية فلم أجد غير مخطوطة الآستانة تلك، وفى فهارس المخطوطات العربية المنتشرة فى العالم فلم أجد لها ذكرًا.

ولمّا كان أوّل ناشرٍ لها فى مصر عالمًا من الأزهر، فقد اتجهت إلى مكتبة الأزهر نفسه، فلقيت من الصعوبات، ومن سوء معاملة صغار الموظفين ما صدّ نفسى، وصرفنى عن التردد عليها، وكانت مثلا حيًّا على أن الأزهر جامعًا وجامعة يعيش أسوأ حالاته،

فلا هو أبقى على تقاليده القديمة الطيبة الجميلة، فى خدمة العلم وتوقيره، واحترام طلابه ومعاونتهم، ولا هو لحق بالعالم المتقدم فنظّم أموره، وأحكم إدارته، وإنّما شىء لا لون له ولا طعم، يقع فى منتصف الطريق بين الجهل والإهمال. وكم أتمنى على شيخ الأزهر أن يرسل بعثة من القائمين على مكتبة الأزهر لا إلى أوربا، وإنما إلى دير الآباء الدومنيكان على حافة القاهرة، فى صحراء العباسية، على بعد ثلاث كيلو مترات من الأزهر نفسه، ليتعلموا كيف تدار المكتبات، وكيف يلقون المترددين عليها.

وكانت وجهتى الثانية أن ناشر الكتاب شامى من بيروت، من عائلة المحمصانى، الشهيرة فيها، وللشام رواق فى الأزهر، كان عامرًا، ولا تزال فيه بقية من حياة، فلعلى واجد فى سجلاته شىء عنه. وكان للأروقة نفسها مكتبات ضخمة، تضم أعدادًا كبيرة من الكتب، بينها من الذخائر والنوادر شىء ليس بالقليل، فلعل بعضها باق إلى يومنا هذا. ويبلغ عددها فى القرن الماضى، ومطلع هذا القرن، واحدًا وثلاثين رواقًا، وكانت مكتبة رواق الأروام، ويقال له رواق الأتراك، تضم ٥٠٥١ مجلدًا، ومكتبة رواق المغاربة ٣٣٨٦ مجلدًا، ويليها رواق الشام وبها ٢١٠٠ مجلدًا، ثم رواق الأكراد ١١٩٧مجلدًا، ثم رواق الصعايدة وبها ١١٩٠ مجلدًا وكذلك بقية الأروقة، وكلها من المخطوطات. وبعض هذه المكتبات ضاع

عبر الزمن، وبعضها ضم إلى مكتبة الأزهر، مثل مكتبة رواق الصعايدة وضُمت إليها عام ١٩٣٦م، ومكتبة رواق الأحناف وضُمت إليها عام ١٩٥٦م، وتمسك أهل أروقة المغاربة والأتراك والشام بمكتباتهم عملاً بشروط الواقفين.

وبدأت أتردّد على رواق الشام، ولكن حتى تحرير هذه المقدمة لم أجد عند أحد من الطلاب قاطنيه جوابًا لسؤالى، ولا من إدارته من يمكننى من البحث فى مخطوطاته، غير أنى علمت أن هيئة اليونسكو العالمية أرسلت عام ١٩٦٣م بعثة إلى القاهرة لتصوير نوادر المخطوطات فيها، وكان بين ما صوّرته المخطوطات النادرة فى مكتبات الأروقة الأزهرية. وأندر ما وقعت عليه فيها مخطوطة الأخلاق والسير لابن حزم، وكُتِبَتْ فى القرن الخامس الهجرى، أى بعد وفاة مؤلفها بقليل، ولعلّها أقدم نص لها بين أيدينا الآن.

وقد تكون للكتاب مخطوطات أخرى فى زوايا شمال أفريقيا، فى تونس والمغرب منه بخاصة، لأن أفكار الرسالة مما تعشقه نفوس الطيبين من المسلمين، والزاهدين من العلماء، وممن حصّلوا قدرًا من الثقافة يتيح لهم أن يفهموا معناها، وأن يقعوا على غايات مؤلفها، فى المكتبات العامة التى لم تفهرس بعد، وفى المكتبات

الخاصة التى تتوارثها الأسر، ومن يدرى فقد يكون لها أكثر من مخطوطة فى مكتبات الآستانة لم يصلنا خبرها، وإليها نقل خلفاء بنى عثمان كل نوادر مخطوطات العالم العربى.

• الكتاب مطبوعًا:

طبع كتاب «الأخلاق والسير» للمرة الأولى فى القاهرة، عام ١٣٢٥هـ - ١٩٠٨م، ولو أن طبعته نفسها لا تحمل تاريخًا، وقام على طبعه، و «اعتنى بتصحيحه، وضبط كلماته اللغوية، وشرح بعضها»، أحمد عمر المحمصانى الأزهرى، وعنوانه كاملاً: «كتاب الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»، وطُبعَ فى مطبعة السعادة بجوار ديوان محافظة مصر، وجاء الكتاب فى ١٠٦ صفحة من القطع المتوسط، وقدّم له بمقدمة موجزة للغاية، لا تتجاوز الصفحة، ولكنها تعكس وعيه الكامل بأهمية الكتاب، فهو يقول فى المقدمة:

«أما بعد، فقد أظفرنى الله بهذا الكتاب الجليل الممتع، الجامع لما يلزم معرفته والتخلق به من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب والحكم. وقد جمع فيه مؤلفه، رحمه الله، معانى كثيرة، استفادها بمرور الأيام وتعاقب الأحوال، بما منحه الله عزّ وجلّ، وقد أنفق فى ذلك أكثر عمره، فهو نتيجة اختبار جليل، وبحث عظيم، وابتدأه بمداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، لما يترتب عليهما من المنافع الجمة، والأوصاف المهمة، وترى المؤلف فى بعض الأبواب يذكر

مداواته لنفسه، ويعرّف المطالع كيف يأخذ فى اكتساب الفضائل حتى يتحلى بها، وكيف يعمل فى اقتلاع جذور الرذائل حتى يتخلى عنها، فيكون إنسانًا كاملاً، وعضوا فى الهيئة الاجتماعية عاملا، فلذا رأيت أن أتحف به قراء العربية، لينتفعوا بما اشتمل عليه، وليتذكر أولو الألباب».

ثم ترجم لابن حزم ترجمة موجزة، نقلها عن صاعد الطليطلى والحميدى، وهما من تلاميذ ابن حزم، وعدّد مؤلَّفاته، التقطها من كتب التاريخ المختلفة التى عرضت له، وذكر أنه اعتمد فى حصرها على كتاب الصلة لابن بشكوال، وبغية الملتمس للضبى، ووفيات الأعيان لابن خَلِّكان، ومن مجلة المقتبس لمنشئها محمد أفندى كرد على، ومن كتاب آثار الأدهار. وذكر لابن حزم رسالة بينها بعنوان «أخلاق النفس»، وهى تختلف عن كتاب الأخلاق الذى بين أيدينا، وأخذت عناوين مختلفة، وأشرنا لها من قبل.

ولا يخالجنى أدنى شك فى أن أحمد عمر المحمصانى اعتمد فى نشر الكتاب على مخطوطة كتاب رواق الشوام فى الأزهر، فنحن لا نعرف للكتاب مخطوطة أخرى فى مصر حتى هذه الساعة، إلى جانب أن المحمصانى نفسه أزهرى وشامى من بيروت، وأرجح أنه كان يقطن رواق الشام، فى البدء طالب علم، وظل كذلك أمدًا طويلاً على طريقة الأزهر القديمة، تقرُّبًا إلى الله، وتمكّنًا من العلم، وليس

طلبًا لشهادة معينة، أو سعيًا وراء عاجل من عرض الدنيا، وأن بقاءه امتدّ فى القاهرة، ولعل مشيخة الرواق انتهت إليه، فاطلع على مخطوطاته، واغتنمها فى القراءة والتأليف، لأننا نجد له كتابًا آخر فرغ من تأليفه بعد أن نشر رسالة ابن حزم، وهو: «تحذير الجمهور من شهادة الزور»، ونشره عام ١٣٢٧هـ - ١٩١٠م.

والحق أن نَشرْ المحمصانى للكتاب جاء عملاً رائعًا، رغم جهله بقواعد التحقيق ومنهجه نظرى، فالنسخة دقيقة، لا أخطاء فيها ولا غموض، ولا اضطراب فى نصها ولا قلق، وبريئة من الأخطاء المطبعية، وهو ما نعانى منه الآن، ولا نجد فيها كلّها إلا خطأً مطبعيًّا واحدًا، فقد سقط من الجملة التالية، فى صفحة ٤٧، حرف لا، وهى: «فنقول وبالله التوفيق كلاما لا يحضّ إلاّ على المسامحة»، وهو خطأ يمكن للقارئ المتمعِّن أن يدركه فى يسر، وقد أحسنّ به أسين بلاثيوس وهو يترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية، ونبه إلى أن الجملة لا تستقيم كما هى، وصوّبها على النحو التالى: «فنقول وبالله التوفيق كلَّ ما يحضّ إلاّ على المسامحة»، وهذا المعنى قريب من ذاك.

والتزم الناشر نص المخطوطة فى تقسيمها إلى فصول، حتى أن بعضها جاء فى نهاية فصل، ولم يأخذ عنوانًا، وليس وراءه إلاّ سطور، فأبقاه على حاله. وفسَّر بعض الكلمات الغريبة التى

جاءت فى النص، وأهمل كثيرًا منها، ربما لأنّها فى أيامه لم تكن تعدً من الغريب، وكان القراء علماء فى جلّهم، ولهم ينشر المؤلفون والمحققون، فلم تكن القراءة شيئًا شائعًا بين جمهرة الناس وفى كل الطبقات، وأهمل التعريف بالأعلام الواردة فيها، ولم يشر إلى المخطوطة بكلمة واحدة.

نحن إذن ندين بمعرفتنا لهذه الرسالة إلى أحمد عمر المحمصانى، فقد أدّى هذا العالم التقى واجبه، وأنقذ إحدى ذخائر الفكر الإسلامى، وذهب لا يكاد يذكره أحد، ولولاه لظلت سرًّا مكتومًا، ولربما ضاعت مخطوطتها الفريدة هذه مع ما ضاع من مخطوطات لا تُقدّر بثمن. رحمه الله، وأوسع له من مغفرته ورضوانه.

كان إقبال الناس على الكتاب عظيما فيما يبدو، فقد ظهرت له فى القاهرة طبعة ثانية بعد عامين فقط من صدور الطبعة الأولى، لا تحمل تاريخًا، وأرجح أنها صدرت عام ١٩١١م، نشرها الكتبى محمد أفندى أدهم، وجاءت فى ٧٨ صفحة من الحجم المتوسط، وعنوانها على الغلاف الخارجى يختلف عنه فى الصفحة الأولى من الداخل، فهو فى الأولى: «فلسفة الأخلاق المسماة مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق، والبعد عن الرذائل لابن حزم». أما الثانية فهو «مداواة النفوس، وتهذيب النفوس، والزهد فى الرذائل». وقد بدا لى فى البدء أن ناشره لم يستهدف به عملاً علميًّا، وأن غايته

تجارية خالصة، ولم يرع فى إخراجه أمانة ولا دقة، ولم ينقل عن أصل مخطوط، وإنما دفع بنسخة المحمصانى إلى المطبعة، دون أن يعنى بها، فجاءت أى شىء، اضطرب النص بين يدى العمال، فسقطت منه فقرات بأكملها، وانتقلت أخرى إلى غير موضعها، وألقى بجمله أكواما فوق بعض، لا تفصل بينها علامات ترقيم، ولا تجىء أفكارها فى فقرات مستقلة، وخلت من الضبط والتفسير اللغوى تمامًا. ولكنى وجدت العنوان الخارجى الذى حمله الكتاب يتفق تماما مع عنوان مخطوطة الآستانة، وبعيد عن التصور، ولو أنه ممكن، أن يجىء العنوان من اختيار الناشر ثم يتفق تماما مع عنوان مخطوطة لم يرها، ومن ثَمَّ رجح عندى أن محمد أفندى أدهم اعتمد على مخطوطة أخرى غير دقيقة، انتهى بها المطاف إلى مكان نجهله.

وحول هذا التاريخ، وقبل عام ١٩١١م على التأكيد، طبعت رسالة ابن حزم للمرة الثانية فى مدينة الإسكندرية، وقام على نشرها على أفندى الحطاب، الكتبى الشهير بجوار أجزخانة المعارف بالسكة الجديدة بالإسكندرية، ولا نعرف لها تاريخًا محدّدًا، وما انتهت إليه فى البدء كان استنتاجًا منى، وعَنَونَ لها: «فلسفة الأخلاق

لابن حزم الأندلسى، وتليها كلمات قاسم بك أمين». وقدّم لها على محمود الحطاب نفسه بمقدّمة من صفحة ونصف، وجاء فيها:

«تصفّحت كلمات ابن حزم فاتخذتها لى سميرًا، وصرت كلما سنحت لى فرصة من الوقت أتردد على مطالعة مقاله الحكيم، وأنا شديد الإعجاب بهذا الرجل جرأته فى تحرّى الحقيقة، فعزمت على طبع كلماته ليكون لى يد فى نشر أفكاره، إلى أن جمعتنى الظروف يوما بأديبين فاضلين فخطر لى أن أخطرهما بعزمى على طبع حكم ابن حزم فارتاحا وأظهرا لى الرغبة فى ذلك، ثم ألفتنى أحدهما إلى كلمات النابغة الحكيم المرحوم قاسم بك أمين، وقال لى فى سياق حديثه: إن كلمات ابن حزم على مكانه متينة من الحزم، وقاسم أمين ليس بأقل منه، وحبذا لو جمعتهما فى كتاب واحد، فوقع ذلك عندى موقع الاستحسان، ولكنى أرجأت ذلك حتى أقرأ كلمات القاسم، وكنت أسمع من ألسنة الناس أن قاسما رجل غير مصلح، ولكن حالما قرأت كلماته ذهب الغشاء عن بصرى، فرأيته رجلًا أبرزته الصدف فى العالم، ليكون كالحكماء أسلافه».

يمثل هذا النص كل مقدمة الناشر، فلم يسبقه غير الفاتحة العادية، من البسملة والحمدلة والدعاء، وسطورًا جاءت خاتمة له، مدح فيها قاسم أمين، وهذا الكتبى نموذج حىّ للوراق العربى فى العصر الوسيط ومطلع هذا القرن، فهو إلى جانب بيع الكتب على

شيء من ثقافة يُتيح له أن يفرّق بين الغث والثمين من المؤلفات. ولكنه تركنا فى غموض وحيرة، فنحن لا نعرف أين قرأ نص ابن حزم هذا: فى مخطوط أم مطبوع، وعن أيهما نقل، وأين توجد مخطوطته إن كان ينقل عن مخطوط، ولأى ناشر قرأ إن كان ينقل عن مطبوع؟. هذه أسئلة لا أجد لها جوابا، ولا أرجّح أىّ جانب منها، ولكن شيئا مؤكدا منها يمكن الجزم به، إذا صدقنا القول، أنه أول من ضم حكم وكلمات قاسم أمين إلى خلاصة تجارب ابن حزم.

والحق أن كلمات ابن حزم وقاسم أمين تلتقى فى الغاية والدافع، وتختلف فى شيء من الأسلوب والأفكار، وتصلحان للدرس والموازنة، وهو ما سأعود إليه فى قابل الأيام.

الخلاف بين طبعة خطاب وطبعة المحمصانى لا يتجاوز الأخطاء المطبعية، والاختلاف فى عنوان الكتاب، وما يحدث من الاعتناء بالطبع أو إهمال يقع فيه، ومن الحرص على سلامة النص وكماله أو التجاوز عن ذلك، ويصعب علىّ فى غيبة الشواهد أن أرجِّح: هل كان ينقل عن طبعة المحمصانى أو عن أصل مخطوط نجهله، فهو ورّاق مثقف فيما أرى، وكانت الإسكندرية منذ أن استقر المسلمون فى الأندلس مهبط حجّاجه، وموئل علمائه، واستقر بأرضها بعض أوليائه، وترك الجميع فى حياتها آثارا مادية وفكرية حتى يومنا هذا، فهل كانت مكتبة بلدية الإسكندرية، أو مكتبات المساجد،

أو المكتبات الخاصة، تضم مخطوطة لكتاب ابن حزم لم تصل إلى أيدينا؟. ربما!.

وقد جاءت طبعة الإسكندرية هذه فى ٧٩ صفحة، من الحجم المتوسط، شغلت رسالة ابن حزم منها الصفحات ٤ – ٤٧، وكلمات قاسم أمين الصفحات ٤٨ – ٧٩.

وصدرت الطبعة الرابعة فى القاهرة بعد طبعة الإسكندرية بعامين، أى فى عام ١٩١٣م، عن مطبعة الجمالية، وكانت نقلاً عن طبعة الإسكندرية، فيما أرجح، فقد تضمنت نفس كلمات قاسم إلى جانب نص ابن حزم، وأعطاها الناشر عنوان: «كلمات فى الأخلاق أو مداواة النفوس». وجاءت فى ١٠٨ صفحة من الحجم المتوسط، شغلت منها رسالة ابن حزم الصفحات ٢ – ٥٣، والباقى تضمن كلمات قاسم أمين، ولم يشر الناشر إلى الأصل الذى نقل عنه، مخطوطًا أم مطبوعًا، ولكن الموازنة ترجح أنه اعتمد على طبعة الإسكندرية، وأضاف إلى أخطاء تلك المطبعية أخطاءه المطبعية، ولم يستدرك عليها شيئًا.

وهناك طبعة خامسة قام بها محمد هاشم الكتبى، بمصر أو دمشق، صدرت عام ١٣٢٤هـ – ١٩٠٦م، أشار إليها الدكتور إحسان عباس فى «رسائل ابن حزم» التى سوف نشير إليها فيما بعد، ولم أرها رغم بحثى عنها، وأشك أنها صدرت فى القاهرة،

لأن طبعة المحمصانى هى أول طبعة لرسالة ابن حزم فى القاهرة، فإذا صحّ أنها نُشرت فى دمشق فإن ذلك يفتح الباب أمام احتمال أن عاصمة بنى أمية كانت تملك أيضا مخطوطة من «كتاب الأخلاق والسير» فى مكتباتها العامة أو الخاصة، والخبر فى جملته موضع شك عندى.

ويصمت الطابعون والناشرون عن كتاب ابن حزم طوال سنوات الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م – ١٩١٨م، وهو أمر طبيعى، فقد عزّت أدوات الطباعة، واشتد الغلاء، وركدت الحال، وتوقفت وسائل المواصلات بين مصر والعالم العربى، ولها وله كانت تكتب وتطبع وتنشر، فلما انتهت الحرب تفجرت ثورة ١٩١٩ العظيمة، وشُغِل المصريون بهموم جديدة، حتى إذا تجاوزنا عام ١٩٣٠م، سوف يعود له الناشرون من جديد، ولم تتوقف طبعاته بعدها على نحو تجارى، وفى صورة لا تتفق وأهمية الرسالة وروعتها.

وفى عام ١٩٣٣م بدأ ثلاثة من الشبان المصريين فى القاهرة: أحمد الشنتناوى، وإبراهيم زكى خورشيد، وعبد الحميد يونس، يترجمون دائرة المعارف الإسلامية، وكان المستشروقون قد أخذوا فى إصدارها منذ عام ١٩٠٨م، وقرأ الناس فيها مقالاً ممتعًا عن ابن حزم كتبه أرندنك Arendonk وأشار فيه إلى أن المستشرق هـ. ريتر H. Ritter اكتشف مجموعة مجهولة من رسائل ابن حزم،

مجموعة فى مجلد، وتوجد فى مكتبه مسجد الفاتح باستانبول رقم ٢٧٠٤. وفيما بعد قام المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس بدراسة هذه المجموعة ووصفها فى مقال نشره عام ١٩٣٤م. ولما أنشىء معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بدأ فى تصوير نوادر المخطوطات العربية فى العالم، ومن بينها مجموعة رسائل ابن حزم، ثم أصدر الجزء الأول من فهرسة المخطوطات المصورة عام ١٩٥٤م، وتضمن تعريفًا بهذه الرسائل.

وقد وقع الدكتور إحسان عباس على مصوّرة هذه المخطوطة فى معهد المخطوطات، فنشر مجموعة منها بعنوان «رسائل ابن حزم» فى القاهرة عام ١٩٥٤م، وهذا التاريخ استنتاج منى، لأن الكتاب لا يحمل تاريخًا، ومن بينها كتاب الأخلاق والسير، وأعطاه العنوان الذى وجده فى المخطوطة وهو: «رسالة فى مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق، والزهد فى الرذائل»، وهو العنوان الذى نجده فى الطبعة الثانية، التى نشرها الكتبى محمد أفندى أدهم، وأشرت إليها فيما سبق.

لكن الدكتور إحسان عباس، وقد وقع على مخطوطة نادرة كان عجلاً من أمره فتجاوز عن بعض قواعد التحقيق، وحين غمت عليه بعض الكلمات أجرى قلمه عليها تعديلاً، ولو استأنى قليلاً، وعاد إلى النسخ المطبوعة لعاد بها إلى أصلها، ولما وقع فى التحريف،

لأن المخطوطات لا تعنينا فى مضمونها وأفكارها فحسب، وإنما يهمنا منها أيضا لغتها، وأسلوب كاتبها، وطريقة التعبير عنده، وحتى نهجه فى رسم الكلمات، وسأضرب لذلك مثلين فحسب:

فى الأصل، من المقدمة جملة «من التهمم بتصاريف الزمان»، وبدلا من «التهمم» جاءت فى مخطوطة الآستانة «التهم»، فأصلحها الدكتور إحسان عباس «الفهم»، والبون واسع بين المعنيين، واللفظين.

وفى المقدمة أيضا، بعد ذلك بسطرين، جملة «وزممت كل ما سبرت»، لم يفهم معناها فأصلحها «ورقمت»، والمعنى الأول واضح، ولفظه أدق تعبيرا عما يريد أن يقوله المؤلف، وأقرب إلى معجمه، وهكذا...

ثم اعتمد على معجم المطبوعات لسركيس، وصدر فى القاهرة عام ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م، حين ذكر أنها طَبَعتْ ثلاث مرات، والحق أنها طُبِعت خمس مرات قبل أن ينشر سركيس معجمه، وخمس مرات أُخرى بعده، وقبل أن ينشرها الدكتور إحسان. وإذا كانت كل هذه الطبعات ليست بذات أهمية، فإن طبعة المحمصانى لا يصح تجاهلها، لسلامتها، ودقتها، ولأن المخطوطة التى اعتمدت عليها من أقدم المخطوطات. وأشير إلى أنه أورد اسمه خطأ، فذكر أنه الشيخ عمر المحمصانى، وهو أحمد عمر، ونسب إليه أنه ذكر عن نسخته «أنّ فيه زيادات على الطبعة الأولى»، ولم يشر المحمصانى إلى شىء من هذا.

وهـــى مآخذ لا تقلل بحال من أهمية العمل الذى قام به الدكتور إحســـان عباس، لأن الإقدام على نَشْر أية مخطوطة معاناة لا يعرف أهوالهـــا إلاّ من اقتحم عالـــم المخطوطات فعلاً، وحـــاول أن يكون فيـــه أمينًا ودقيقًا، فـــلا أحد يعينك ممن عندهـــم المخطوطات، أو القائمين على شئون المكتبات العامة، إلاّ من عصم الله وقليل ماهم، وبعضهـــم يتعمد تضليل الباحثين فيقـــدم لهم معلومات خاطئة، أو ناقصة، فى وثائق رســـمية، يتقبلها الباحث بنية طيبة، ثم يتبين له أنه ذهب ضحية التغرير، وأبسطها فيما يتصل برسالتنا هذه ما نجده فى الجزء الأول من فهـــرس المخطوطات العربية المصورة، ص ١٢٨، رقـــم ١٣٣، وأصدره معهد المخطوطـــات بجامعة الدول العربية نفسه، بتصنيف فؤاد السيد، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية، فقد أورد تعريفًا لمجموعة رسائل ابن حزم هذه، وصوّرها عن مكتبة شـــهيد علـــى، وأعطى لها وصفًا يتضمـــن حجمها، وعدد أوراقهـــا، وذكر أنها «مجموعة رســـائل تحتوى على: ....»، وعدّد الرســـائل التى تضمها المجموعة، ولكنه أسقط منها عامدًا رسالتين هامتيـــن، أولاهما: رســـالة ابن حزم فـــى الرد على ابـــن النغريد اليهـــودى، والثانية: رســـالته فى الإمامة. والمؤسســـة رســـمية، والفهرس المطبوع أصدرته هيئة رســـمية محترمة، ولك أن تتصور

مـــا يمكن أن يقع فيـــه الباحث من أخطـــاء، إذا اعتمد عليها، وعلى مثلها.

• الكتاب فى اللغات الأجنبية:

يعتبر ابن حزم آخر من عرفته أوربا من عمالقة الفكر الإسلامى، رغم أصالة منهجه، وخصوبة فكره، وعالمية أفقه، وسعة معارفه، وتنوّع أبحاثه، لأن لدده فى الخصومة، وعنفه فى الحوار، واعتزازه بنفسه، ونقده لكل المذاهب والفرق والأديان، حاشا الإسلام، جعل هؤلاء جميعًا يردّون له الصاع صاعين عندما واتتهّم الفرصة، فلم يُترجم من أبحاثه ومؤلفاته شيءٌ طوال العصر الوسيط، ومرّ به المترجمون، وجلهم من اليهود، وبقيتهم من النصارى والمسلمين المحافظين، وكأنه ما أبدع شيئًا، ولا قال مفيدًا. وترك هذا بصماته واضحة فى عصرنا الحديث فلم يظهر اسمه أبدًا فى مدونات تاريخ الفلسفة العام، وحتى زمن قريب قلّة من المتخصصين فحسب خصته بسطور قليلة موجزة فى مؤلفاتهم، لا تكاد تعكس إلاّ على نحو غائم ومهلهل وعام، منهجه فى العقيدة والتشريع.

لقد مرّ س. مونك S. Munk بابن حزم فى صمت مريب عندما نشر كتابه عن «كبار الفلاسفة العرب ومذاهبهم»، فى سلسلة «دراسات عن فلاسفة اليهود والعرب»، وصدر فى باريس عام ١٨٥٩م، وظهرت منه طبعة ثانية فى المدينة نفسها عام ١٩٢٧م.

وكان رينهارت دوزى أول من انتبه إليه من المستشرقين فى كتابه عن «تاريخ مسلمى إسبانيا»، وصدرت الطبعة الأولى منه فى ليدنم عام ١٨٦١م، وفيه رسم صورة واضحة لملامح ابن حزم البارزة، وأفاد على نحو طيب من كتابين لابن حزم كانا مجهولين تمامًا حتى ذلك التاريخ، وهما: طوق الحمامة، والفصل فى الملل والأهواء والنحل، وكان دوزى أول من أزاح النقاب عنهما.

وبعد ذلك توالت دراسات المستشرقين له، فدرسه جولد تسهير بوصفه فقهيًا فى الدراسة التى خصّ بها المذهب الظاهرى، ونشرها فى ليبزج عام ١٨٨٤م، ووضعه بين أشد المدافعين عن المذهب، ودرس على نحو مفصّل رسالته المسمّاة «إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل»، ثم توالت دراستهم عنه بوصفه فقهيًا ظاهريًّا، وإذا استثنينا بعض الفصول التى تُرجمت بتصرّف من كتاب «الفصل» ليدعم بها الباحثون الأوربيون آراءهم، فحتى عام ١٩١٦م لم يكن قد ترجم لابن حزم أىّ كتاب كاملاً إلى أية لغة أوربية.

أمّا أوّل ترجمة لمؤلف كامل من أعمال ابن حزم فقام بها المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوس، (١٨٧١ - ١٩٤٥م)، لكتاب «الأخلاق والسير ومداواة النفوس»، وقام بها معتمدًا على طبعتى المحمصانى والجمالية، وصدرت، عن «جمعية تشجيع الدراسات

والبحوث العلمية»، مركز الدراسات التاريخية، فى مدريد عام ١٩١٦م، بعنوان:

Los Caracteres y la Conducta. Tritado de Moral practica. por Ambenhazam de Cordoba

وجاء النص المترجم فى ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط، نفس الحجم الذى نشر فيه الكتاب بمصر إذ ذاك، وصدّره بمقدمة جاءت فى ٣١ صفحة، تحدث فيها عن المؤلف والكتاب، وألحق بالترجمة فهارس للأعلام وكشّافا تحليليا للموضوعات.

لم يكن بلاثيوس وهو يترجم الكتاب مستشرقًا عاديًا، فقد تخصص فى الفلسفة الإسلامية بعامة، والجانب الأندلسى منها بخاصة، وخص ابن حزم بأعظم دراسة له نعرفها حتى الآن، فى أية لغة، بما فيها اللغة العربية، وشغلت الجزء الأول كاملا من ترجمته لكتاب «الفصل»، وجاءت فى خمسة أجزاء، وصدرت فى مدريد عام ١٩٢٧م – ١٩٣٢م، وترجمناها إلى اللغة العربية، وهى فى طريقها إلى النشر. وترجمته لا بأس بها إذا أخذنا فى الحسبان بلاغة ابن حزم، وأفكاره المكّثفة، وأنها أول ترجمة يقوم بها لكتاب كامل، ولذلك ندّت منه هفوات لا تقلل من قيمة عمله، كغفلته عن «ابن نوح»، و «والد إبراهيم»، وظنه أنهما كنيتان، وأنهما من أقارب النبى، ولم يفطن إلى أن المراد نوحًا وإبراهيم

النبيين الواردين فى التوراة والقرآن وقصتهما، الأول مع ابنه والثانى مع أبيه، معروفة، وأشرنا إلى ذلك فى موضعه من نص الكتاب.

وكذلك أفلت منه المعنى الدقيق لبعض الجمل، لأن معرفة اللغة وحدها لا يكفى فى الإمساك به، فقد ترجم هذه الجملة: «كثرة المال ترغّب، وقلته تقنع» على النحو التالى:

Se desea poseer grandes riquezas. y Con bien poco basta

ومعنى هذه الجملة: «نرغب فى المال الكثير، ولكن قليلة يكفى»، وابن حزم لا يريد هذا المعنى، إنما يوّد أن يقول بجملته تلك: إن كثرة المال تغرى صاحبه بالاندفاع فى جمعه والإكثار منه، وقلته تكسبه قناعة ورضى؛ ولم يستطع أن يصل إلى معنى جملة: «كثرة وقوع العين على الشخص يسهِّل أمره ويهوّنه»، ففهم العين على أنها الجاسوس، وهو من معانيها فعلا، ولكنه لا يستقيم هنا، وأدرك أن الأمر لا يتأتى، فعلّق على الجملة فى الهامش بأنها غامضة وبأن المعنى المراد منها يمكن أن يكون: «الذين يحسون بأنهم موضع تجسّس يهتمون أكثر، ويثابرون فى أعمالهم حتى لا يفشلوا»، وما أبعد هذا عما أراده ابن حزم، لقد أراد معنى بسيطًا جدا، أوجزه المثل العربى: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»، أى أن كثرة تردّد المرء على مكان، أو جماعة، يجعلهم يزهدون فيه.

وذلك كله لا يمس قيمة الجهد الكبير الذى قام به بلاثيوس، ولا يقلل من الروعة والجمال والبساطة التى صب فيها أفكار ابن حزم، فأتاح للقارئ الإسبانى العادى، غير المتخصص، أن يجد فيها متعة، وأن يقع منهما على خير، ولو أن الكتاب لم تطبع ترجمته ثانية، ولم يخرج من مجال المتخصصين إلى الطبعات الشعبية التى تتجه إلى عامة المثقفين، وإنه لجدير بأن يأخذ مكانه بينها.

وقد وشَّى بلاثيوس الترجمة بكثير من التعاليق المفيدة، ولكنه أسرف على نفسه وعلى الحقيقة حين حاول أن يرد كثيرًا من الأفكار المتصلة بالفضيلة إلى الإنجيل، لأن الخطوط العامة للفضيلة لا تكاد تختلف، والأخلاق فى محصلتها النهائية تلتقى فى كل دين وملة، وتأتى على لسان أمِّى غير مسيحى لا يقرأ، وعلى لسان وثنى لم يسمع بالإنجيل، فأسقطنا هذه الإشارات ونحن نفيد من تعاليقه، لأننا نراها تزيُّدا يضلِّل القارئ، ولا يخدم النص، ولا يقوم عليها دليل.

وعندما بدأت المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) التابعة لهيئة الأمم المتحدة، ومقرها باريس، ترجمة روائع التراث العالمى إلى اللغات المختلفة، للتقريب بين العالم عن طريق الثقافة، كان كتاب «الأخلاق والسير» لابن حزم من أوائل

الكتب العربية التى ترجمت إلى اللغات الأوربية، وقد رأيت الترجمة الفرنسية فى الخارج، منذ سنوات طويلة، خلال إحدى رحلاتى إلى أوربا، وضاع من الذاكرة اسم مترجمها، ولكن بقايا انطباع فى نفسى لما تزل باقية، وهى أن البون شاسع بين الترجمة وبين الدقة المطلوبة، لأن المترجم فيما يبدو كان متمكنا تماما من اللغة الفرنسية، ولكن حظه من اللغة العربية وبلاغتها محدود. وفى عام ١٩٦١م نشرت السيدة ندى طومش نص الكتاب بالعربية مع ترجمته إلى اللغة الفرنسية، وصدر فى بيروت، وعبثا حاولت أن أجد نسخة منها فى القاهرة، لأعود إليها، وأفيد منها، وأقول رأيى فيها.

• مادة الكتاب:

كثيرون كتبوا فى الأخلاق قبل ابن حزم وبعده، إغريقًا ومسلمين ومسيحيين ومشارقة، غير أن هذه المؤلفات، فى الجانب الأوفر منها، كانت تستهدف غايات تربوية، أو تدور حول قضايا تجريدية، ولكن ابن حزم فى كتابه الذى معنا لا يستهدف غايةً أيًّا من الأمرين، فهو لا يرتب أفكاره ترتيبًا معينًا يعين على استقرارها فى الذاكرة، ولا يحدّد مفاهيمه تحديدًا منطقيًا دقيقًا يعدها للمدارسة، شأن العالم، أو دارس الأخلاق، حين يعرض للظواهر فى حياد علمى، أو يحللها فى جانبها التجريدى، ولا يقف من

القضايا التى تناولها موقفا علميًّا باردًا، ولم يأت بها فى شكل حوار كما صنع فى كتابه «الفصل»، وإنما يُقدّم خلاله كل ملامح الأخلاق العملية التى تعرض لإنسان واسع التجربة، والتى يرقبها ملاحظ واع دقيق، يتأمّل الأحداث تتدافع حوله أو فى حياته ثم تترسّب فىَ أعماقه تجارب تتجمع مع الزمن، وتأخذ مكانها فى الذاكرة، وتمضى مع الزمن متجاوزة، ثم يستردها صاحبها من هناك حين تجىء اللحظة المواتية، ويكسوها ثوبًا من الحكمة، أو يدفع بها مَثَلاً فى عالم الكلمة.

فالكتاب الذى بين أيدينا صفحات من الحكم تدور حول الأخلاق، أو ألوان من الخلق إذا شئت، جاءت فى صورة حكم، ولكنها لا تشبه ما كتب الآخرون فى الإسلام أو خارج نطاقه، ممن ينقلون من هنا وهناك حقائق لا تنتهى عن الأخلاق، لا صلة لها بواقع اللحظة التى كتبوا فيها، ولا ترتبط بحالة الجماعة التى يكتبون لها، وإنما هى قواعد عامة، أخذت طابعًا تجريديًا، تتجاوز حدود الزمان والمكان، وسلكت طريقها إلى كل الحضارات منذ أبعد عصور التاريخ، وجاء من يجمعها فى مختارات، على نحو ما نلتقى بها فى كليلة ودمنة، أو فى الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع، أو فى مجمع الأمثال للميدانى، أو فى الأبواب الخاصة بالحكمة، أو المثل، أو الزهد، من الموسوعات العربية الشهيرة. أما كتاب

ابــن حزم فمجموعــة من أخلاق ذاتيــة، بالغة التمّيــز والأصالة، وملامح من تأمّل الحياة كما رآها المؤلف فى نفســه وفى الآخرين، وعرفها تجربةً فــى أرض الواقع، ولم تكن وليدة قراءة لكتابات لا حياة فيها من مجموعات الحكم والأمثال.

ويمثل الزهد الإيجابى فكرة جوهرية تلمسها فى كل ما خط ابن حزم فى هذا الكتاب، صراحة أو وراء الكلمات، وخصها بحديث مستفيض فى المقدمة والفصلين الأول والثانى، وتقوم فى جوهرها على غرض واحد اتفق عليه كل الناس، وهو طرد الهمّ، ويفصّل القول فى هذا، ويقلّب الأمر على وجوهه، كما لم يصنعه مع أية فكرة أخرى، ولا يجد وسيلة لبلوغ هذه الغاية «إلا التوجه إلى الله عزّ وجل بالعمل للآخرة»، فهو إذا خلا من العيب، وخلص من الكدر، كان موصِّلا إلى طرد الهم. والفضائل هبة من الخالق، والإنسان صالح أو فاسد بالطبيعة، طبقًا لمزاجه النفسى الذى خلقه الله على هيئته، وما يستطيعه التعليم فى هذا قليل ومحدود، والأبيات التالية من الشعر، وأوردها تلميذه الحميدى فى كتابه «جذوة المقتبس» توجز لنا هذه الفلسفة:

هــل الــدهــرُ إلاّ مــا عــرفنــا وأدركنــا
فجــائعُــه تبقــى، ولــذّاتــه تفنــى
إذا أمكـنتْ فيــه مســرّةُ ســاعــةٍ
تولَّـتْ كمـرِّ الطرف واستحلفتْ حُزْنا

إلــى تبعــاتٍ فــى المعــاد ومـوقـفٍ
نــودّ لــديــه أنّنــا لــم نكــن كُنَّــا
حصلنــا علــى هــمٍّ وإثــم وحســرة
وفــات الّــذى كنــا نَلَــذُّ بــه عنَّــا
حنيــنٌ لِمَا ولــىَّ وشغــلٌ بمــا أتَــى
وغــمٌّ لما يُرجى، فعيشــك لا يَهْنَا
كــأن الــذى كُنَّــا نســرُّ بكــونــه
إذا حقّقتــه النفس لفظٌ بــلا معنــى

وربما كانت أهمية الرسالة العظمى، على الرغم من صغر حجمها نسبيا، أنها تقدّم لنا إطارًا حقيقيًّا وحيًّا لنفسية الأندلسيين وأخلاقهم فى القرن الحادى عشر الميلادى، كما يراها ويقيمها مفكر أصيل ومستقل، وحرص دائما على أن يظل مواطنا حرًا فى جمهورية الفكر الإسلامى، وحافظ على ذلك طوال حياته، بعيدًا عن أية تبعية دينية للمذاهب الفقهية التقليدية.

• منهج ابن حزم فى الكتاب:

يتكون الكتاب من مقدمة موجزة، يتلوها ثلاثة عشر فصلا، تختلف طولا وأهمية، ومحتوى كل فصل منها لا يرتبط ضرورة، على نحو دقيق، بالعنوان الذى يجىء على رأسه، وإنما تلقى فيه،

بعد قليل من الحكم التى تتسق مع العنوان، حكمًا أخرى ذات معنى مختلف عمّا سبقها وعن العنوان. ومحتوى بعض الفصول لا يتفق تماما مع عنوان الكتاب ذاته، وإنما يعرض لموضوعات بعيدة عن الأخلاق، كما نجد فى الفصل السابع، فهو يتحدث عن الحب، ويقدم تحديدًا دقيقًا، أو تعريفًا إذا شئت، لبعض مصطلحات الجمال. وهذا الفصل، على قصره وإجماله، إضافة بالغة الأهمية، عظيمة القيمة، إلى تاريخ الأفكار الجمالية، ودون تحيزّ يسبق بها ابن حزم كل من جاء قبله من الفلاسفة، وممن جاء بعده أيضا، لا فى دقة تعاريفه ووضوحوها فحسب، وإنما فى ثراء الملاحظات وموضوعيتها، ورقتها ولطفها، وعن الخصائص الجوهرية للجمال، والثابت والمتغيّر فيه، ومواطنه ودرجاته.

ولا يسير ابن حزم فى طريقة العرض على نمط واحد، وإن كان يغلب عليه طابع الحكمة والمثل، مما يجعل الكتاب شبيهًا بما تجده عند كبار المفكرين والأدباء الذين عرضوا لمثل هذا اللون من التأليف فى الشرق والغرب.

وقد يترك التأمّل والتقييد والتسجيل ويرتدى ثياب الواعظ الزاهد، كما فعل فى فصل «أدواء الأخلاق الفاسدة»، فيحمل على ما فسد منها فى فصاحة، ويبرز أضرارها فى منطق، ويبلغ القمة فى إدانة العجب والزهو، والفخر والخيلاء، ولا يقل فيها روعة عن أروع الصفحات التى سطّرها الزهّاد من الصوفية المسلمين.

وفى الفصل الرابع من الرسالة ارتدّ ابن حزم على نفسه، وأمسك بالمقرعة يهوى بها على ما عنده من نقائص، واعترف علينا بأنه شاب حياته شيء من رذائل، وبما بذل من جهد ليتخلص منها، ثم حمد الله على أنه برؤ منها أخيرا بالإرادة والعزيمة والمثابرة، وهى يلقى بذلك فى صدق آسر، وفى تواضع التائب، ولو أنه لا يلبث أن يعاود الدفاع عن نفسه فى هذا الفصل. وفى فقرات أخرى من بقية فصول الكتاب، تعرض لحياته الشخصية، وتجعل من الكتاب شيئًا شبيهًا بالاعترافات والمذاكرات، أكثر منه دراسة لأخلاق الآخرين.

وثمة فقرات غير قليلة، وفصول كاملة، تقدم وصفًا دقيقًا موضوعيًّا، ينبض واقعية وحيوية، للملامح الإنسانية، تشدّنا إليها بقوة، وتثير فينا قراءتها إحساسًا بالمتعة والاستغراق فيها، كتلك التى تجد عند قراءة كتاب «الأخلاق» للفيلسوف الإغريقى تيوفراست Teofaste (٣٧٢ – ٢٨٧ ق.م) أو مقالات الفليسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦م) فى السياسة والأخلاق، ويلتقى مع ابن حزم فى جوانب من حياته ونشاطه العقلى، ويختلفان فى جوانب أخرى.

وتجىء الأفكار مرسلة، تفتقد التجانس فيما بينها، ويعوزها التناسق فى العرض، وتنقصها وحدة العمل، فيبدو الكتاب كما

لو كان مسوَّدة كتاب، أو مجرد كراسة دُوّنت بها نقاط، تكمل مع الزمن، ويعود إليها صاحبها يوما منسِّقًا ومرتّبًا، ولكنها تعكس، فى كل الأحوال، ملامح مؤلفها ونفسيته فى وضوح وإلحاح. وهى فى هذا الجانب وثيقة عظيمة الأهمية فى تحديد مزاج ابن حزم الأخلاقى بصورة حاسمة، لا مجال للتردد إزاءها، وتنهض على براهين حاسمة لا سبيل إلى إنكارها، وتقوم على أعمدة قوية من الشموخ والصلابة والاعتزاز بالنفس، دون تراخ أو تسامح، وفى كل الحالات، وفى مواجهة أعتى الظروف.

• **مصادر الكتاب:**

دراسة المصادر التى يقوم عليها مذهب ابن حزم الأخلاقى فى كتابه محدودةُ الأهمية، لأن مجموعة الأفكار الأخلاقية والاجتماعية التى لا تعكس تجربته الشخصية قليلة جدًّا، ويمكن أن نردها إلى الأصول التالية:

• الأخلاق الإسلامية، ممثلة فيما يدعو إليه القرآن والسنة، ولو أن استشهاد ابن حزم بالقرآن والحديث محدود للغاية فى هذا الكتاب.

• الأفكار التى يمكن أن نجد لها أصلاً فى التوراة والإنجيل، وهى فى جملتها غير واضحة، لتلاقى الكتب السماوية فى الجانب الأكبر من الفضائل الإنسانية، ومن المغالاة فى هذه الحال أن

نتجاوز النبع الأقرب والمباشر فى ثقافة ابن حزم وهو القرآن، لنفتش عن أصولها فى الثقافات الأخرى.

- التأثيرات الفلسفية الإغريقية، ويشير إليها ابن حزم قليلاً جدًّا، ويردّد بكثرة تعريفات الفضائل والرذائل التى يسلم بها الناس دون حاجة إلى برهان، وتومئ إلى تأثره بالمدرسة العربية الأرسطية فى جدلها، وكان ابن حزم يعرفها جيدًّا، وهو يأخذ بتعريف أرسطو للفضيلة، ويرجع الفضائل إلى أصول أربعة كما صنع أفلاطون، وإن اختلف عنه فى بعضها.

التأثيرات الهندية والفارسية، وهى قليلة أيضا، وعلمانية الطابع، شأنها كذلك شأن المصدر السابق، وأخذت طريقها إلى الفكر الإسلامى من خلال كتب الأدب أمثال كليلة ودمنة، والأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع.

- المصدرُ الأخير، والأهم، التجاربُ الشخصية لابن حزم، وكانت واسعة بلا حدود، وشملت كل جوانب الحياة، الفكرية والعملية، وأوجز هذا المصدر فى مقدمة الرسالة: «إنى جمعتُ فى كتابى هذا معانى كثيرة، أفادنيها واهب التمييز تعالى، بمرور الأيام، وتعاقب الأحوال، بما منحنى عزّ وجل من العلم بتصاريف الزمان، والإشراف على أحواله، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه، على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس، وعلى الازدياد

من فضول المال». والجانب الأكبر من الأفكار يعود إلى هذا المصدر، وفيه تكمن أهمية الكتاب.

ومن اللافت للنظر أن ابن حزم، دافع عن الإسلام بقوة، وشجب كل العقائد المخالفة له فى حدة، وواجه كل الذين حاولوا أن ينالوا منه فى الشرق والغرب، ولم تبهت حماسته الدينية أبدًا، كان فى حياته الاجتماعية على جانب كبير من التسامح، واحترام الإنسان كإنسان، فكان محله المختار وهو لاجئ فى المرية دكان إسماعيل ابن يونس الطبيب الإسرائيلى، على ما رواه هو نفسه فى كتابه «طوق الحمامة»، على عنف ما واجه به اليهودية دينًا فى كتابه «الفصل» وهو يتناول عقائدها، وعلى شدة ما وصم به يوسف بن إسماعيل بن النغرلّة وزير باديس بن حبوس الشهير حين اجترأ هذا على الإسلام والقرآن. وهو يرى فى رسالته هذه بأن من يمارس دينه بإخلاص، أى دين كان، خيرٌ من رجل لا دين له على الإطلاق.

وابن حزم يرفض التقليد فى التشريع وفى الحياة، ولا يصدر فى حكمه على الأشياء إلاّ عن معرفة، «وإنما يحكم فى الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر»، وإذا ظن شيئًا وجاءت التجربة، أو المعرفة، أو الاستقراء بغيره عدل عنه: «كنّا (الضمير يعود على ابن حزم) نظن أن العشق فى ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو فى

الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بَلَهًا». ويسبق حكمَهُ فى كثير من المواطن قَوْلُهُ: «وقد وقفت»، أو «رأيت»، أو «أخبرنى»، أو «تأمّلت»، أو يأخذ له المثل من حياته نفسها، أو يستشهد عليه بقوْل العامة، لأنه لا يقف بتأمّله عند طبقة بعينها، وإنما يلتقط حكمته ودليله أنى وجدهما، عند عِلْية القوم أو بين غمار الناس، وإذا لم يقع للظاهرة على سبب سأل عنه من يعرف، وقد يتلقى الحكم فى الأمر مجملا، يقع عليه فى التراث الإنسانى بعامة، فإذا ارتضاه فكرة له برهن عليه.

• من «طوق الحمامة» إلى الأخلاق والسِّيَر:

ألّف ابن حزم طوق الحمامة وهو فى غضارة الشباب، لمّا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، وفيه عالج أمر الحب من كل جوانبه، فلسفة يبحث له عن سبب، وظاهرة تحدث فى الحياة كل يوم، وأوجز القول فى الفلسفة، وأفاض فى الظاهرة، وعرض لوسائله، وطرقه، وألوانه، «وفيض من ذكرياته عن نفسه، وعن أصدقائه، وآخرين مجهولين، وكلهم من العشّاق، زفراتهم حارة، وأحاسيسهم صادقة، يخلطون المداد بالدمع أو الريق، ويستخدمون فى التراسل الحمام والعيون والرسل، ويعانون من الوشاة، ويموتون من الحب، وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم، والشخصيات العامة فى قرطبة، وبالإشارات التاريخية،والأحداث

الهامة، والحفلات الخاصة، وتخطيط العاصمة ومعمارها، ومساكن آل حزم ومستواها، وكلها تتحرك نابضة بالحياة، وتمضى متماسكة مثل عناقيد العنب، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف، خطها بقلمه، واعترافات مخلصة ألقى بها فى جرأة وصدق غير معهودين فى الفكر الإسلامى على أيامه، وما بعدها، وحتى يومنا هذا».[1]

وكان ابن حزم فيه كعادته، صريحًا جريئًا، لا يكنى ولا يلمح ولا يشير، ولا يتألم ولا يتردد، فألقى ببعض القضايا واضحة، وواجهها بلالف ولا دوران، فأثار ذلك بعض الذين يتظاهرون بالمحافظة، ويصطنعون الوقار، حتى إن جماعة من الشيوخ ثارت عندما طبع الكتاب للمرة الأولى، ولا زالت منهم بقية إلى يومنا يتوارثون موقفهم، وزعموا أن الكتاب مدسوس على ابن حزم، رغم أن ذلك ثابت تاريخيًا، ويدعمه النقد الداخلى للنص نفسه، تريد أن تحرم هذا العالم العظيم من أروع ما خطته يمينه، ومن أجمل صفحات يزهو بها الأدب العربى والفكر الإسلامى.

قَصَدَ ابنُ حزم من كتاب الطوق أن يدرس ظاهرة الحب فى مجتمعه، لا دراسة نظرية تجريدية، وأن يضرب المثل والشاهد

(١) د. الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ – الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٧م. والطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨١م.

على كل ما يقول، وفى أحايين قليلة كان يستطرد إلى قضايا جانبية، ليست ذات صلة مباشرة بالموضوع.

أمّا كتاب «الأخلاق والسير»، فجاء بين آخر ما خط ابن حزم فى حياته، إن لم يكن آخر ما كتب على الإطلاق، وهو على نحو ما ألمحنا خليط من التجارب والذكريات اتسعت وعمقت، وكانت صدى صادقا وأمينا لحياة ابن حزم نفسها، وتعددت موضوعاته وقضاياه بالقدر الذى كانت عليه حياة مؤلفه، وهو يحمل، بداهة، كلمة ابن حزم الأخيرة فيما آمن به وارتآه، واختلف أسلوبه فى الكتابين تبعًا لاختلاف موضوعهما، وزمن تحريرهما.

فهو فى «الطوق» يستطرد، ويستشهد بالكثير من أشعاره، ويمايز بين النص يعرض لحادثه تاريخية فيجيء كلامه مرسلاً، وبينه يعكس أحاسيسه الداخلية فيجئ نثرًا فنيًا راقيًا، موشًّى بالصور، من تشبيه واستعارة ومجاز، ويحرص فيه على الإيقاع الموسيقىّ، من تناغم العبارة، وازدواج الجملة، وقد تقع جملة سجعًا فى جانب منها، فتجئ عفوًا غير متكلّفة. أما أسلوبه فى «الأخلاق» فيعتمد على التركيز والتكثيف، والاختصار الذى تصبح معه الجملة حكمة يسهل أن تعلق بالذاكرة، وتتجاوز التفاصيل لتنصرف إلى الجوهر، وتصدق على أكثر من حالة، وإن اختلفت بينها العوارض، أو تجرى مثلا على الألسنة، تستعيره من ابن

حزم، ليعبّر عن حالات مشابهة، لا قدرة لنا على التعبير عنها. ونادرًا ما يذكر فيه أسماء غيره، أو يعنى بالتأريخ لما يقول، وأحكامه تنضح خبرة وتجربة وصقلاً، وأشد رزانة ومسئولية ووعيًا، وتعكس قوة وإصرارًا واقتناعا.

ومن هنا، فإن القضايا التى تجىء فى الكتابين معًا قليلة جدًّا، ولفت نظرى منها أمران: أولهما الكذب. وعرض له ابن حزم تفصيلا فى الطوق، وطّوق المعنى هناك واستوفى جوانبه، وجاء الحديث عنه فى «الأخلاق» موجزًا، ولكن فكرته الرئيسية لم تتغير فى الكتابين: الكذب أشد من الكفر، والكفر ليس إلاّ لونًا من الكذب. والثانى حديثه عن الحب، وما أعظم ابن حزم حين يعرض للحب للمرة الثانية، وهو شيخ على أبواب السبعين من حياته العاصفة، لا يتّهم فيما يقول بأن احتدام العاطفة، وفوران الجسد، دفع به إلى ما يجب أن يصمت عنه. وفى حديثه عنه، وهو على وشك الرحيل عن الدنيا، يذكرنا بدور الحب فى الحياة، وأهميته فى تكييف سلوك الناس، ولا يجىء به فى كتاب «الأخلاق» ضائعًا بين غمار القضايا الأخرى التى عرض لها، أو فيض التجارب الذى ساقه بين أيدينا، وإنما خصه بفصول ثلاثة مستقلة: الأول «فى أنواع المحبة»، والثانى وكان فيما يبدو مسوّدة لم يُقدّر لها أن تكمل أعطاه عنوان: «فصول من هذا الباب»، والثالث «فى أنواع صباحة

الصور»، تحدّث فيه عن مقاييس الجمال الحسى، والفصول الثلاثة تختلف فيما بينها طولاً وقصرا، ولكن حتى أقصرها ليس أقصر فصول الكتاب، وفى غيرها قد يعرض لشىء يتصل بالحب عجلاً، يجئ فى حكمة أو مثل شأن بقية الموضوعات.

ليس من غايتى هنا أن أتناول الأمر كله درْسا وتحليلاً، فذلك حديث يطول، وليس هنا مجاله، وقد أعود إليه فى مناسبة أخرى، وبحسبى أن أشير هنا إلى أن موقف ابن حزم من الحب، ونظرته إلى جوهره، لم تتغير رغم الزمن، وأول ما نلحظه فى كتابه «الأخلاق»، كما فى كتابه «الطوق» من قبل، أنه صدّر دراسته له بقوله: «فصل فى أنواع المحبة، وقد سئلت فى تحقيق القول فيها،وفى أنواعها». والفارق بينهما أن الفعل جاء مبينًا للمجهول، فلا نعرف من الذى سأله، وأنه كتب «الطوق» استجابة لرغبة صديق كتب إليه، ذكر ذلك ولم يفصح عن اسمه.

تُرى كان الناس يقصدون ابن حزم فعلا يسألونه الفتوى فى قضايا الحب، فتى ينصح شبابًا، وشيخًا يفيض حكمة، أما أنه أسلوب من الكتابة، ولون من مواجهة المواضيع؟.

فى «الطوق» أفاض ابن حزم فى قضايا خارجية كثيرة، تتصل بالحب ولكنها خارجه عن ماهيته، كالرقيب، والواشى، والعاذل، والمساعد من الإخوان، وفضل التعفف، وقبح المعصية، ولم يعرض

لشيء من هذا فى كتابه «الأخلاق»، وانتحى فى هذا سبيلاً مغايرة فى تناول قضية الحب، يغلب عليها منطقية التقسيم، ومنهجية التعليل، والإيجاز فى القول. وفيهما معا، فى الكتاب الأول وفى الثانى، يجعل العلاقة الجنسية ذات خطر فعّال فى تعميق الحب وتوكيده، ولو أن عبارته عنها فى «الأخلاق» أوجز قولاً، وأكثر رصانة، وأشد إيضاحًا: «وأقصى أطماع الحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء، إذا رجاء ذلك. ولذلك تجد المحبّ المفرط المحبة فى ذات فراشه يرغب فى جماعها على هيآت شتى، وفى أماكن مختلفة، ليستكثر من الاتصال بها».

وفى «الأخلاق» فصّل القول فى ألوان حب «المحرمات» من النساء، تقع بين الأقارب الذين لا يحل بينهم التزاوج شرعًا، واختلاف موقف الشرائع منه، ونفهم من عبارته، وإن لم يقع على التعبير العلمى فى صيغته المعاصرة، أن تحديد طبقات من يصح للمرء أن يتزوج منهن ومن لا يصح مرجعه الدين والعادة، وليست الغريزة نفسها، فهى لا تفرق حين ترغب بين قريب أو بعيد، إذا تجرّد المرء من وازع الدين، وحائل التقاليد، وهى قضية لم يعرض لها فى «الطوق» أصلا، وإن أشار عرضًا، وفى عجالة، لجانب منها وقع فعلاً، دون أن يتوقف عنده أو يعقب عليه.

وأوجز فى «الأخلاق» أيضا، ولم يصنعه فى «الطوق»، أطوار الحب، وكيف يبدأ: استحسانًا، فإعجابًا، فقربى، فإلفة، فكلفًا،

وهذا الأخير يسمى فى باب الغزل بالعشق، «وهو امتناع النوم والأكل والشرب، إلا اليسير من ذلك، وربما أدَّى ذلك إلى المرض أو إلى الموت، وليس وراء هذا منزلة فى تناهى المحبة أصلا».

أما حديثه عن الجمال وماهيته وأشكاله فلم يعرض له فى «الطوق» أصلا، إلا ما جاء من حديثه عرضا عبر صفحات الكتاب، من أنه أحب فى صباه جارية شقراء الشعر، فلم يستحسن بعد ذلك سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس، أو على صورة الحسن نفسه، وأن أباه كان مثله فى هذا، وأن خلفاء بنى أمية فى الأندلس كلهم «مجبولون على تفضيل الشقرة، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف».

وباختصار جاء «الطوق» صورة دقيقة لحدة الشباب واندفاعه، وتوهجه وعفويته، وكان كتاب «الأخلاق» انعكاسًا صادقًا لحكمة الشيوخ، ورزانة العقل، وما أفاد صاحبه فى معترك الحياة.

❑❑❑